إلى رسمى ، وكثيراً ما رأيتها تشير إلىَّ بالبنان إشارةَ متَّيم بالحب ولهان . . . . فغشينى من الهم ما غشى فرعون من اليَّمّ ، فما نظرتْ إلىَّ نظرة إلا أورثتْ قلبى ألف حسرة ، فذهبتُ وذهب قلبى معها وكدتُ مما بى أقوم كى أودِّعها » (٢٦) ، ألم يكن من الممكن أن تكون هذه التجربة العاطفية أو الحلم العاطفى محوراً لقصة حب بين « برهان الدين » والفرنسية . كان ذلك ممكناً لو أن المؤلف خطط فى كتابه لمثل هذه العلاقات الإنسانية ، لكنه اكتفى بهذه الإشارة الإنسانية العابرة فى سياق حديثه عن المسارح الفرنسية ربما ليبين المدى الذى قطعه المجتمع الأوروبى - مُمثلاً هنا فى فرنسا - من تطور فى شكل الحياة الاجتماعية والحرية الشخصية إلى الحد الذى أذهل الفتى الشرقى ، وإلا هل يعقل أن ينفض الفتى عن ذاكرته ودقات قلبه كلَّ هذه المشاعر الذى انتابته ويذهب إلى النوم فينام ويستيقظ فى الصباح دون أن يشغله من أمره إلا حكاية ما جرى وطلب النصيحة من أبيه ، وينتهى الأمر عند قول أبيه كلاماً كثيراً فى نقد العادات الاجتماعية الغربية ينتهى بقوله : « إن هذا لا يعنينا ولا يمكننا تغييره وكان عليك أن تغض طرفك عما لا يجوز لك رؤيته»، وكأنه كان بإمكانه أن يغض الطرف ولم يفعل . فموقفُ الأب منطقى بالقياس إلى عقله وثقافته وحصافته وكبر سنه ، ولكن كيف يقف الشاب من الأمر